التصوف في الشرق والغرب

للسيد محمد الغنيمي التفتازاني

هذا عنوان لمحاضرة ألقاها السيد التفتازاني في الاسكندرية في منتصف أغسطس سنة ١٩٣٢ وقد نالت التقدير اللائق بها ؛ وكنا أعلنا في العدد الماضي أنها بقلم المستر أربري؛ وقد كان ذلك سهواً منا ؛ فنتقدم إلى السيد التفتازاني معتذرين ، راجين أن يكون مطمئناً إلى ما علقنا به على بعض نقط البحث ؟ المحرر

***

يرى علماء الإسلام أن التصوف هو الفلسفة الإسلامية التي سايرت الاسلام منذ بزغ نوره ، وقد تأثر بأدواره جميعاً ، فهو تارة كنز مهمل ، لا يعرفه إلا خزنة أسراره ، ثم هو تارة مدرسة للتربية العملية حمل خريجوها أعباء النهضات الإسلامية في عصور الازدهار.

وقد ظل علماء الغرب يخبطون في حقيقة التصوف الإسلامي زمناً طويلا ، فقد زعموا حيناً انه من تراث الاغريق ، وظنوا حيناً أنه من نتاج الأفكار الهندية ، وظل بعضهم معتقداً أن الفرس هم واضعو أسسه قبل الإسلام ، وأن الأتراك هم مطبقو نظرياته بعد ذلك ، وبقيت الحقيقة بعيدة عن متناولهم ، لأنهم لم يقصدوا إلى بابها ، ولم يقدم إليها حب النصفة للشرق وأهله اعتزازاً بما أصبحوا فيه من قوة وسلطان ، وما بات فيه الشرق من ذل وهوان ؛ وظنوا أن القوة هي كل ما يستوجب الاكبار والاجلال ، وأن الضعف هو القبر الذي يجب أن تدفن تحت جنادله كل مفخرة يعتز الضعيف بسبب من أسباب الاتصال بها ، ولو من طريق الميراث ؛ وصادفت هذه الروح الجبارة العاتية جمود الشرق والشرقيين، وخمول علماء المشارقة، وانصراف أكثرهم إلى ما لا يدفع غائلة ولا يكسب مناعة . فانتشرت في العالم الغربي فكرة تجرد الشرق من أسباب الحضارة ، وأن ذلك القديم الذي يعتز به المشارقة قد تهدمت أركانه وضاع أصله ، وحق لهم أن يصوروا الشرق بهذه الصورة البشعة ، لأنهم منذ اتصلوا بنا بعد قوتهم وضعفنا ، لم يجدوا فينا إلا مرضى القلوب والعقول ممن تقودهم الشهوات وتشجعهم الغايات ، فلا يستطيعون صد معتد ولا رد تهمة هم منها براء .

وأخيراً ، غلبت روح العلم الشفافة التي هي رحم بين أهله جميعاً ، وصفت نفوس بعض علماء الغرب ، فأخذوا يصارحون الجيل بوجوب الاقرار بالفضل لأهله ، والسعي في إعادة الحق إلى أصحابه ولو إلى حد ما .

قرأنا في كتب نولدكه ، وجوني ، وأوليري ، وجولدزيهر ، وفون هامر ، وآسين

بلاسيوس ، ثم فى كتب ماكدونالد ، وبراون ، ومارجليوث ؛ وأخيراً فى تلك النفائس التى يخرجها للناس الآن الأستاذ (نيكلسون) عميد جامعة (كمبردج) ، وشيخ اللغات العربية ، والفارسية ، والتركية ، والاغريقية بشعبتها الشرقية ... من دلائل الانصاف وخدمة الحقيقة المجردة ما يجعلنا نذكرهم بالثناء والحمد ، كما نثنى على من تابعهم فى مسلكهم النزيه من علماء أوربا فى العصر الحاضر .

وحق علينا أن نخجل مرة ثانية ، لقصورنا عن اللحاق بهم حتى فى الكشف عن مفاخر آبائنا وأجدادنا ؛ ولعل هذا الخجل يوقظ موات قلوبنا ، فيكشف عنها ما ران عليها ، فتبدأ جهودنا فى العناية بتلك السلسلة التى علا الصدأ حلقاتها ، وهى ليست فى حاجة إلا إلى من يجلو عنها هذا الصدأ ، فتعود لامعة براقة تتحلى بها كأكرم الأوسمة وأبهى النياشين ، بل كعقد الماس ائتلفت حباته مصقولة مضيئة ، تأخذ بالأبصار .

ما هو التصوف؟

يقول الكرخى : « التصوف هو الأخذ بالحقائق ، والغنى عما فى أيدى الخلائق » ، ويقول الجنيد : « التصوف هو أن تكون مع الله ، وتحب فى الله ، وتبغض فى الله » ؛ ويقول سمنون : « التصوف هو ألا تملك شيئاً لا يملكك شىء » ، ويقول إمام الجماعة بهذه المدينة أبو العباس المرسى : « التصوف هو أن تلزم حدود الله ، وأن تكون معه فى كل زمان ومكان » ، ويقول أبو الحسن الشاذلى : « التصوف هو تدريب القلب على معرفة الرب ، والتخلص من الكدرة إلى النضرة ، وطرد الجفاء بالصفاء » .

من هو الصوفى؟

يقول فريق من علماء الإسلام : إن هذا الاسم مشتق من الصفاء ، وفى ذلك يقول الشاعر :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا ... فظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أرضى لهذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى لقب الصوفى[1]

وذهب بعضهم إلى أن هذا الاسم منسوب إلى مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين آوى إليه بعض الصحابة يرتزقون من صدقاته ، وأخذ عليهم البعض هذا الأسلوب من العيش ، فلم ينصفهم إلا نزول قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » .

(١) قائل ذلك هو أبو الفتح البستى ؛ وللبيتين روايتان أخريان ــ ذكرهما وناقشهما ومحققهما محرر هذه المجلة فى العددين : الثالث والرابع من السنة الاولى (يوليو وأغسطس سنة ١٩٣١) .

ولا أظن صحة هذه النسبة إذ لو صحت لـكانوا صفية ، لا صوفية .

ويقول الطوسي ، وهو أحد أئمتهم : « الأظهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال : إنه من الصوف ، فلذلك وجه؛ ولـكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف[1] » ، ويرى القشـيرى أنه لقب ، لأنه غير مشتق في لغة العرب ، كما أنه غير مقيس .

ويرى المستشرقون أمثال : نلدكه ، ونيكلسون ، رأى ابن خلدون عند قوله في المقدمة: « والأظهر أنه قيل بالاشـتقاق إنه من الصوف ، وهم مختصون بلبسه في الغالب لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف» .

وإذاً أصبح من المرجح لدى علماء العصر أن الاسم مشتق من الصوف ، وأن القوم اتخذوا لباسه شعاراً تمييزاً لأنفسهم عن المترفين .

وانفرد (فون هامر) برأى لا يزال موضع البحث ، فهو يرى أن الـكلمة مشتقة من أصل إغريقى ، وأن (سوف) باليونانيـة معناها الحكمة ، ومنها (فيلوسوف) ، أى محب الحكمة ، والصوفى هو محب الحكمة ، والباحث عنها في مظانها[2] .

ولـكن (نلدكه) رد عليه هذا الزعم ، ووقفت المسألة عند هذا الحد بين علماء أوربا إلى الآن ، ورجح عندهم رأى (ابن خلدون) من أن النسبة إلى الصوف أصح وأنسب .

وأول من استعمل كلمة الصوفية من كتاب العرب ، هو (الجاحظ) في كتاب «البيان والتبيين» ،عند قوله : « الصوفية من النساك » .

ويرى أبو نصر السراج أن الـكلمة مستعملة منذ الصدر الأول من الإسلام ، إذ يقول الحسن البصرى : إنه رأى (صوفياً) يطوف بالـكعبة ،والحسن البصرى من التابعين الأولين ، وقد أدرك صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ عنهم .

واتفقوا على أن أول من أطلق عليه لفظ « الصوفى »، هو أبو هاشم الـكوفى دفين الرملة بفلسطين ، المتوفى سنة ٢٣٠ هجرية[3] .

علم التصوف

يقول ابن خلدون في المقدمة : « الصوفية من العلوم الشرعيـة الحادثة في الملة ، وأصلها

(١) هذا رأى القشيرى لا الطوسي . المحرر

(٢) تخالف حضرة الـكاتب في هذا الرأى فإن فون هامر الالمانى ليس هو الذى انفرد بهذا الرأى . وانما تقدمه من المسلمين الفيلسوف « أبو الريحان البيرونى » المتوفى سنة (٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م) . فذكر هذا الرأى وأخذ به فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة فى العقل أو مرذولة » طبع ليدن ١٨٨٧ م .

(٣) وردت هذه الآراء جميعا مؤلف كتاب « التصوف الاسلامى العربى » المطبوع فى عام ١٩٢٨ م وقد ترجمها المصنف وهو « عبد اللطيف الطيباوى » عن الاستاذين : نيكلسون وبراون . وقد طبع كتابه هذا بعد نشر مقالاتنا عن ذلك الموضوع فى جريدة «العلم» وكنا نحب من الاستاذ التفتازانى ألا يهمل الاشارة الى هذا المؤلف الـكبير كما أهمل الاشارة الى ما كتبه صاحب هذه المجلة من قبل .

العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور : من لذة ، ومال ، وجاه ، والانفراد عن الخلق بالخلوة إلى العبادة ، وقد كان ذلك فاشياً فى الصحابة والسلف ، ولما عم الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم « الصوفية أو المتصوفة » .

وهنا يجب أن تعرف عبارة « ابن خلدون » على وجهها الصحيح ، فأقول : إن ما أراده ترجع إلى المتعة الشخصية ، والتلذذ فى ذاته ، وهذا لا يتعارض مطلقاً مع أمر القرآن فى قوله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، وإن أولئك السلف الذين يقول عنهم « ابن خلدون » : إن الزهد كان فاشياً فيهم ، هم بعينهم الذين فتح الله لهم فى عشرات الأعوام ما امتنع على غيرهم طروقه فى مئاتها ، بل هم الذين وضعوا أسس المدنية الإسلامية ، فالتصوف كان معناه عندهم تربية الارادة ، والاعتماد على النفس ، وعرفان الواجب ، بل كانت الروح الصوفية ، هى التى تقودهم إلى إعلاء كلمة الله وهداية البشر .

فلا يظنن أحد أن التصوف كان معناه عندهم الخمول والكسل ، والتزام الخلوة للعبادة دون القيام بواجب المعبود وحقوق عباده ، بل كان التصوف عندهم مدرسة الرجولة ومعهد الحياة العملية ، ولم يدون التاريخ لواحد من أولئك الأسلاف أنه انقطع عن الدنيا ، فلم يشترك فى مهام أمته ووطنه ، كما أن تكوين الأسرة كان غالباً عليهم جميعاً ، ولم يعش واحد منهم عالة على أحد ، لأنهم يعلمون عن يقين قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » ، كما يعرفون قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، وخير لك أن تترك أبناءك أغنياء من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » ، وقد غلبت عليهم خشية الله وتغلغل حبه فى أعماق قلوبهم ، ثم جنحوا إلى الزهد ، لأنهم وجدوا فيه مصدر القوة والسعادة ، وقد قال سيد الوجود صلوات الله وسلامه عليه : « حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » ، فلم تستهوهم الدنيا بزخرفها ، ولا ألحت عليهم بطونهم باستعار الشهوات ، أولئك الذين عرفوا الله فعرفهم وعرفهم .

ومما أقصه هنا على سبيل الذكرى والتفكهة : أن الامام الليث بن سعد ، وقد كان أغنى أهل عصره ، كما كان أعلمهم ، وكان يملك إقليم الجيزة من أوله إلى آخره حبساً وإقطاعاً ، وكان يذبح لأضيافه فى كل يوم عشرات المواشى والأغنام ، وكان إلى جوار داره رجل اختص ببيع (الفول المدمس) فى حانوته ، وفى كل صباح يفد إليه الخادم الخاص للامام الليث ليبتاع منه فولا مدمساً وزيتاً بدرهم ، فأدهش الرجل عدم انقطاع هذا الخادم عن مشترى الفول فى كل يوم ، فقال له يوماً ما : (يا أخى سيدك دا إيه ما بوكلكشى ليه من اللى بيندبح كل يوم للناس ومن أصناف الحلوى والفطاير اللى تسند القلب ، ومستلك يا مسكين

بالفول المدمس كل يوم ؟) ، أجابه الخادم : (أمال الفول دا لمين يا عبيط ما هو لسيدى ، هو بيدوق غيره إلا يوم الجمعة ؟!) .

ولو أننا استوعبنا ما فى بطون كتب التاريخ والسير من حكايات الصوفية ؛ كابن أدهم ، والحورانى ، والخواص ، والشعرانى وغيرهم ، وسردنا نوادرهم وأخبارهم لضاق بنا المجال ، وكلها تدل على مبلغ عرفانهم بالله أولا ؛ ثم عرفانهم بنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، ثم عرفانهم بواجبهم نحو دينهم وأمتهم .

* * *

إذا عرفنا التصوف الإسلامى على حقيقته - وهو العرفان بالله والتزام حدوده - استطعنا أن نساير تطوراته منذ الصدر الأول من الإسلام إلى الآن ، فقد كان عند الصحابة والتابعين زهداً وخوفاً من الله ؛ ثم كان عند تابعيهم مدرسة تربية عملية ؛ حتى إذا بدأ القرن الثالث الهجرة ، دخلت العناصر الغريبة على التصوف ، فعرفت فكرة الشمول والاتحاد والحلول بين بعضهم ، واتسع نطاق نظرية وحدة الوجود على أثر ترجمة الكتب اليونانية ، واختلاط الأفكار الهندية والفارسية بالفكرة العربية ، ثم أخذ التصوف شكله كفلسفة إسلامية ، إذ استطاع أن يهضم هذا الغريب كله ، وأن يطبعه بالطابع العربى الإسلامى ، وجعل أساس هذه الفلسفة المعرفة بالله أولا وآخراً .

ومن ثم كانت هذه النزعات جميعها متلاصقة بحيث لا يستطيع باحث أن يفرق بين إحداها وأخرى ، ومن هنا بدأت العداوة بين الفقهاء أهل الأثر ، وبين المتصوفة أهل الفكر ؛ وابتدأ الخلاف بينهم نقاشاً بالرسائل والكتب ؛ ومجالس التدريس والوعظ ؛ ثم انتهى بصراع عنيف فرق بين الطائفتين إلى أن ظهر الامام الغزالى فى المشرق ، والامام ابن رشد فى المغرب ، وصنف الأول كتابه « إحياء علوم الدين » ؛ وهو أجل ما صنفه الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر ، والفكر والأثر ؛ وقد يطول بنا المقام لو أردنا إيفاء الامام الغزالى حقه وشرحنا ظروف هجرانه الدرس إلى الحس والطوق إلى الذوق ، وكيف ازاح الحجب عن نفسه ، فأشرب مشرب القوم بعد التزام مجاهدة النفس حتى تسنم الذروة ، وأصبحت كتبه مرجع النظارة فى حقائق الاسلام .

أما ابن رشد ، فمع أنه كان من خصوم المتصوفة ، ومن أكبر أعداء نظريات الغزالى وكتبه ، إلا أنه كان بعد تعرف الحقيقة ، السراج الوهاج الذى تدين أوربا لنوره إلى اليوم ؛ وما أبناء مدرسة قرطبة وغيرها من مدارس المغرب والأندلس وخريجيها من الفلاسفة والعلماء بخافية على أحد .

وحسبنا من ابن رشد ، أنه معدود بين الفلاسفة المتكلمين ، ثم هو فى مقدمة الفقهاء والمحدثين والأئمة المجتهدين ، ثم هو عنوان جد أهل الثراء والجاه بين رجالات المسلمين ، ثم هو إمام من أئمة النساك والمتعبدين ، فهو من نواحيه جميعاً يمثل العالم المسلم الذى تعرف حقيقة الدين ، وانتهج سبيل السابقين الأولين ، أو هو كما يقول خصومه : « المجموعة الزاهرة النادرة » .

وفى غضون هذه المدة ظهر بين المتصوفة فريق ، جهد للوصول إلى مرتبة الفناء ، وغلبت على عباراتهم صبغة الاشكال والابهام والتعقيد ، كإخوان الصفا، وابن العربى ، وابن الفارض من المشارقة ، وابن جلول ، وابن حرازم ، وأبى مدين من المغاربة ؛ ولم يكن من السهل أن يتذوق مشربهم إلا من خالطهم وعاشرهم وتابع مناهجهم ؛ ولكنهم ـ جميعاً ومن إليهم من رجالات الصوفية ـ نشروا أعلام الصفاء فى جو الحب ، والحب هو مدد الحياة فى الدنيا ، وطريق السعادة إلى الآخرة ، ومن هنا نظروا جميعاً إلى البشرية نظرة صافية ، بعيدة عن كدرة التفرقة وظلمة الغرض ، ومقياس هذه النظرة قول الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى[١] :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وإذا أردنا الانصاف فلنقل فى صراحة ـ لا لبس فيها ولا إيهام ـ : إن الانسانية مدينة للمتصوفة بتقديرها والعلو بها إلى أرقى مراتب الوجود ، وإنه إذا صفت النظرة وزالت الكدرة أصبح الجميع أحباباً فى الله ؛ دينهم الرحمة ، وشعارهم الحب ، وسياج ذلك كله الحب .

ومن العدل أن نعرج على ذكر المماليك الأولين الذين خلد لهم التاريخ الاسلامى آيات البطولة ؛ لأنهم صدوا عنه تيار الصليبيين والتتر ؛ فأنقذوه من محن كادت تودى به جميعاً ؛ وقد آزروا الحركة الصوفية واتخذوا منها مجناً يقى الاسلام خطر المهاجمة ؛ فنى التصوف قوة الدفاع علماً وعملا ونظاماً ، وقد بدأوا هذه النهضة بعد أن دحر السلطان المعظم جيوش البرابرة فى عين (جالوت) بين نابلس وبيسان عام ٦٥٧ للهجرة ؛ فمنى المسلمون بالتمدن الاسلامى والثقافة العربية فى جميع الأنحاء ، وواصلت مصر جهودها الجبارة فى استعادة مجدها العالمى بعد زوال الدولة الفاطمية التى لا ينكر المنصف أياديها على مصر ونهضتها من كل ناحية ، واشتركت الدولة ـ كما قدمنا ـ فى مؤازرة هذه الحركة الصوفية الناهضة ؛ فازدهرت وترعرعت ، وكان هذا العصر المبارك مبدأ تنظيم الصوفية إلى جماعات ، بعضها فى الخانقاهات أو التكايا ، والبعض الآخر فى المدارس المنتشرة ؛ ولا يزال بعض هذه النظم باقياً إلى الآن ،

---

(١) لقد أحسن الاستاذ التفتازانى فى تسمية الشيخ الأكبر بابن العربى لا ابن عربى مجاراة لما حققه العلامة أحمد زكى باشا فى الجزء الثانى من « المرأة » للسنة الأولى ص ١٦٨ . المحرر

يرجع بعضه إلى نظم الفاطميين فى حكمهم وعلاقة خلفائهم بقبائلهم وعشائرهم ، ويرجع البعض الآخر إلى ابتكار شيوخ الصوفية إبان حكم المماليك الأكراد ، مثل ذلك : كيفية تقدم المريد للجماعة واندماجه بينهم ، ثم حسبانه منهم ، ثم تدرجه فى مسالك الطريق بقهر النفس ، ثم إلزامه بأن ينتج،وأن يعيش من كسب يده حتى لا يكون عالة على أحد ، ثم وصوله إلى درجة النقابة فالخلافة ، ثم تحدثه على أتباعه ومريديه واتصاله بهم ، ثم اتصال الشيخ بالجميع ، حتى يسهل عليه بث ماير يده من تعاليم وتلقين ما يراه من اوامر ، وأحيط ذلك كله بسياج طاعة الشيخ طاعة مطلقة،ولكن بالطبع لن تكون هذه الطاعة فى معصية تنكرها الشريعة السمحة.

أما القطب ، وأما الأوتاد ، وأما الأبدال : فأسماء ومراتب اصطلح عليها الصوفية منذ العصر الفاطمى ؛ وما بعد ذلك من المراتب فنظامه نظام الجند،واصطلاحه يطابق اصطلاح العسكرية تماماً ؛ ولكن الجميع — من أولهم إلى آخرهم على اختلاف رتبهم ومراتبهم — يدينون بأن الاسلام هو مصدر السلطة ، وأن كل ما خالف أصوله وأحكامه فهو باطل ؛ وهنا لا يجب أن يغفل مجهود الأستاذ الشعرانى — رضى الله عنه — فكتبه مراجع ذلك جميعاً.

ونعد إلى الامام الغزالى ، لأنه أجل شخصية بين علماء الصوفية ، ينبغى أن يعرفها الناس جميعاً،فنقول:إن كتبه هى الدرع الواقى للعقيدة،وإن كل حكومة يهمها أن تحتفظ بروح الدين وفضائله فى شعبها ، وجب عليها وجوباً كلياً لا قصور فيه ، ولا هوادة،أن تعمل على إذاعتها وتيسير تناولها لكافة طبقات الشعب بالتدريس فى دور العلم،وبالارشاد والوعظ فى دور العبادة.

وقديماً عرفت أوربا فضل الامام الغزالى ، فترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية فى القرون الوسطى ، وكان أكثر الناس انتفاعاً بها اليهود ، لأنهم صدوا بقوتها تيار المنكرين عليهم من الفلاسفة والملاحدة،بترجمة كتابيه المقاصد والتهافت،مستعيرين ألفاظه وعباراته فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وبالطبع لم يحترم اليهود الامام الغزالى ، إلا لأنهم وجدوا فى كتبه سهام الدفاع ، يردون بها هجوم الزنادقة والملحدين على دياناتهم.

أما الاحياء ، فليس فى الوقت متسع للالمام باليسير من محتوياته ، وبالاختصار أردد ما يقوله (المستر ماكدونالد) المستشرق المعروف : « إن هذا الكتاب يصح أن يستغنى به عن ألوف الكتب ، بل يجب أن يكون المصدر الموثوق به فى : الدين والتربية والأخلاق والتصوف » .

وهذا المستشرق الفاضل ، هو أصدق من كتب فى تاريخ حياة الامام الغزالى ، وفلسفته بين علماء أوربا ، ويرجع إليه الفضل فى الاشادة بذكر الامام الغزالى بين دارسى التصوف الاسلامى اليوم فى جامعات أوربا ؟

محمد الغنيمى التفتازانى